

الحروب الاستعمارية بين الجزائر وفرنسا 1962 – 1954

حليمي مصطفى: طالب دكتوراه/ كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

إشراف: أ.د مجاود محمد/ كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس

ملخص الدراسة:

يعتبر الاستعمار أحد أهم الأجهزة الأمنية في الفترة المعاصرة، وقد برز بشكل جلي خلال حروب التحرير التي قامت بها الشعوب الأفروآسيوية منتصف القرن العشرين، وفي هذا الشأن تعتبر حرب التحرير الجزائرية مثالا واضحا للحرب الاستعمارية التي دارت بين جبهة التحرير الوطني والاستعمار الفرنسي.

لقد وظفت الإدارة الاستعمارية كل إمكانياتها الاستعمارية للقضاء على الثورة التحريرية، حيث عملت على تنظيم هيئاتها الاستعمارية واستحداث مصالح جديدة و مكاتب تابعة لجهاز المخابرات الفرنسي في كل القوى الأمنية، وهو الأمر الذي مكّنها من تحقيق اختراقات قوية لجيش وجبهة التحرير الوطني والشعب الجزائري كافة. أما على الضفة الأخرى من الحرب فقد تمكن كل من عبد الحفيظ بوصوف، هواري بومدين، سي الغوثي وأبو الفتح من إنشاء مدرسة للاتصالات كانت الممهد لشبكة استعلامات قوية استطاعت من خلالها الولاية التاريخية الخامسة أن تمد القادة السياسيين والعسكريين بكل ما يحتاجونه من معلومات من خلال شبكات التنصت التابعة لمديرية التوثيق و البحث (DDR) ومديرية اليقظة ومكافحة التجسس (DVCR) اللتان حققتا اختراقا قويا للإدارة الاستعمارية والجيش الفرنسي، وقد مثلت هذه الحرب الاستعمارية واجهة الصراع بين الجزائر وفرنسا، خاصة بعد انحسار العمليات القتالية بعد 1958.

الكلمات المفتاحية:

الاستعلام – المخابرات – الثورة التحريرية – الجزائر – فرنسا – الحرب

مقدمة

يتفق الخبراء العسكريون على أن أي خطة ناجحة يجب أن يكون لها هدف استراتيجي واضح ومجموعة تكتيكات تساعد على الوصول إلى هذا الهدف بأسهل طريقة وأقل مؤونة وأسرع وقت، ومن أهم التكتيكات التي تساعد على حسم المعارك والانتصار في الحرب هو العمل الاستخباري المتقن الذي يوفر المعلومات اللازمة لبناء أي خطة ناجحة أو صد أي هجوم معادي. إن استقاء المعلومات، الموضوع الرئيسي لمصالح الاستعلام، وفي حقيقة الأمر فإن المعلومة ليست هي المبتغى الأسى لمصالح الاستعلام؛ بل هي وسيلة أولية مبدئية تمكن بعد تحليلها من الوصول إلى ما تريده تلك المصالح. ولعلها في هذا تتشارك - مصالح الاستعلام - مع علم التاريخ، إذ لا تكون للوقائع دلالة كافية في حد ذاتها، إذا لم يتم ربط بعضها ببعض الآخر، ولم يتم ترتيبها ترتيبا هرميا ولم يتم تلخيصها أي استغلالها بالتحليل للخروج بفكرة جديدة وفهم أمثل. وبذلك يصبح الاستعلام والتاريخ أكثر فهما للوقائع. ويشارك الاستعلام والتاريخ من جهة أخرى في كونهما علمان استقرايان ينطلقان من معرفة الحوادث الخاصة للوصول إلى استنتاجات عامة قد لا تكون - في العادة - موضع ترحيب.

يعتبر الاستعلام - في شكله المبسط - من أقدم ما عرف الانسان وقد تطور ليستعمل في الحروب، فاستخدمته الحضارات القديمة لمعرفة ميدان الاقتتال وجمع المعطيات التكتيكية حول العدو. ثم تطور عبر مختلف الحقب ليصبح خلال الفترة المعاصرة عصب الحروب وقوامها. حيث أكدت الحربين العالميتين الأولى والثانية، وكذا حروب التحرير التي قادتها الشعوب الأفرو آسيوية، أن معرفة جيوش العدو من حيث تنظيمها، قدراتها القتالية، وهياكلها القاعدية، أمر حيوي. والاستعلام حول هذه المعطيات يمثل عاملا مضاعفا للقوة أو لتعويضها لاختلال التوازن. وقد يعوض في كثير من الأحيان القوة النارية والقدرة على التجنيد مع معرفة أو توقع فعل أو رد فعل الخصم. ولا شك أن نموذج الثورة التحريرية الجزائرية يعتبر مثاليا لحرب الاستعلامات التي قادتها الشعوب الأفرو آسيوية بغية تحريرها. لقد كانت حرب الجزائر من أعنف ثورات القرن العشرين جرت بين ثالث قوة استخباراتية وبين شعب أعزل يقوده خيرة من الثوريين الذين أسسوا لأنفسهم شبكة استعلام ضخمة جابهت الإمكانيات الضخمة للاستعمار الفرنسي.

انطلاق ثورة التحرير:

عرفت الساحة السياسية الجزائرية بعد أحداث الثامن ماي 1945 تحولات عميقة جدا، وبعد إصدار العفو الشامل وإعادة تأسيس الحركة الوطنية من جديد، برز التيار الاستقلالي باسم جديد وهيكل جديد انبثق عنها المنظمة الخاصة التي كلفت بالإعداد للثورة التحريرية، هذه الأخيرة التي

لم تدم أكثر من ثلاث سنوات¹ كان لها الفضل في "إنتاج الرجال" الذي بفضلهم ستعلن ثورة الفاتح من نوفمبر 1954.

بث التيار الاستقلالي بصفة عامة و المنظمة الخاصة بصفة خاصة، روح الاستقلال في أوساط الجزائريين، فتجاوز الشعور بالانتماء الوطني الانقسامات القبلية والجهوية. وفي أول نوفمبر 1954 قامت الجزائر ترد على التحدي الذي فرضه عليها التاريخ. إن انفجار العنف؛ خلافا لما يمكن اعتقاده، بأنه مدعاة للدم والموت. فإنه تمظهر سامي للحياة وفي الوقت نفسه احتفال بها.² خضعت المناطق العسكرية لقيادة مجموعة الستة المنبثقة عن مجموعة 22 "الذين فجروا الثورة، مدعومين برفاقهم السابقين في المنظمة الخاصة. كاستراتيجية مبدئية و تكتيك قتالي أولي فضل القادة العسكريون في البداية استقلالية المناطق العسكرية، طبقا لمبادئ الحروب الشعبية. و من محاسن هذه الاستراتيجية أنها تلغى وجود القائد الواحد و تتيح استقلالية أكبر للقيادات العسكرية للعمل وفق الظروف و الإمكانيات. و قد تدعم هذا المشروع في وقت لاحق بشبكة استعلامية كان غرضها الأساسي الحصول على أي معلومة أمنية³ تسهم في حسم الثورة التحريرية لصالح جبهة التحرير.

¹ رغم اختراق الأحزاب السياسية الجزائرية من مديرية مراقبة الإقليم (DST)، إلا أنه لم يتم الكشف عن المنظمة الخاصة إلا صدفة. بعد توقيف أحد أعضائها، وهو المدعو بلحاج عبد القادر في عام 1950، و حينها تمكنت مصالح الاستعلام الفرنسية من التفكيك الجزئي للمنظمة.

² ينظر: محمد خلفاوي، الاستعلام رهان حرب صامتة، ط2، دار سارة للنشر، الجزائر، 2016، ص 98 عن: m.v.creveld, la transformation de la guerre, éd. du Rocher, 1998, p188

³ يؤكد الخبير الأمني روبرت غرين على أهمية "معرفة العدو" لأن إعلان الحرب من غير تبصير يؤدي إلى الاستنزاف والدمار الذاتي حتى في حالة الانتصار. فمع تطور المعرفة اكتشف القادة العسكريون أنهم كلما فكروا وخططوا بشكل جيد كلما تعاضمت فرص نجاحهم و وجود استراتيجيات جديدة يتيح هزم جيوش أكبر بكثير من جيوشهم. ينظر: روبرت غرين، 33 استراتيجية للحرب، تر سامر أبو هوش، دار العبيكان (السعودية) و دار كلمة (الإمارات)، ط1، 2009، ص 19

أجندة جهاز المخابرات و المصالح الاستعلامية الفرنسية و تعاملها الأولي مع الثورة:

إن الفاتح من نوفمبر 1954 ليس هو التاريخ الأول الذي عبر فيه الجزائريون عن رفضهم للوجود الاستعماري؛ بل سبقته العديد من الانتفاضات و الحروب⁴، غير أن الجديد في ثورة نوفمبر في وقتها و ظروفها هو أن تلك العمليات القتالية – على بساطتها في البداية – لم تكن مرغوبة لدى سلطات الإدارة الاستعمارية صاحبة ثالث قوة استخباراتية في العالم بعد الاتحاد السوفياتي و الولايات المتحدة الأمريكية. كان صدمة و سوء تقدير و استعلام جبرا للضرر ستطلق مصالح الاستعلام لدى كل القوات الأمنية الفرنسية حملة تضليلية مبدئية لتقويض أركان جبهة و جيش التحرير الوطني، و في هذا الشأن تكثفت عمليات الاختراق و التضليل التي قامت بها مصالح الاستعلامات لكل القوى الأمنية الفرنسية⁵ و بالأخص تلك التي قام بها جهاز ال (DST) و المسؤول الأسبق ل (DGER) جاك سوستيل، بالبحث و اغتيال قيادات جيش و حزب جبهة التحرير (FLN/ALN). حيث قامت هذه الأجهزة الأمنية بتركيز كل جهودها على منطقة الأوراس التي شهدت أكبر "العمليات التخريبية".⁶

كان جاك سوستيل الحاكم العام للجزائر واثقا إلى درجة كبيرة من أنه سيسيطر على الوضع، و أن ذلك يحتاج إلى الوقت فقط، و في هذه الصدد خطط لعملية كبرى تهدف إلى اختراق جيش التحرير لإحباط الحركة المسلحة، حيث تم توظيف جزائريين في بلاد القبائل ليتم تنظيمهم في مجموعات تتراوح ما بين 5 إلى 20 عنصرا على شاكلة مجموعات جيش التحرير قبل أن يهتروا صفوفها. لقد كلف المدعو "ت.أ" هذا الأخير عميل سابق في المخابرات الفرنسية لتنفيذ المهمة في فيفري 1955. و أول اتصال له كان مع صديقه أحمد الزايد، الذي اتصل بمسؤول محلي للثورة " عزرون محمد " والذي كشف بدوره عن المشروع للعقيد كريم بلقاسم قائد الولاية الثالثة. و بعد مشاورات مع الضباط يقرر كريم قلب العملية لصالح الثورة.⁷

⁴ لم تجر حروب بالمفهوم العصري للحرب، لكن جرت حرب ضمنية لم تتوقف أبدا. و الحرب الضمنية لا تفترض التقاء الطرفين بجيشين، بل قد تفرضها مبدأ الاعتداء و حق الدفاع عن النفس. للاستزادة في هذه المسألة ينظر: فهد خليل زايد، الحروب و التسويات، بين الماضي و الحاضر: دراسة تحليلية، دار يافا لعلمية للنشر و التوزيع، 2011، ص 7

⁵ في هذا الشأن سيأشر جهاز المخابرات الفرنسي أكبر عملياته بعد الحرب العالمية الثانية. حيث سيقوم على مدى سنوات الثورة بالعمل على صياغة "جدول التأويل" الذي يقدم التوصيات المناسبة للإدارة الاستعمارية للتعامل الأمثل مع حرب الجزائر. و قد تضمن هذا المشروع كل الاحتمالات الواردة بما فيها جدول الحرب التخريبية لتحقيق السلم التقليدي – النظرية الصفيرية أو ما اصطلح عليه (الحرب مهما كلفت) و انتهى البرنامج إلى تقديم مقترح لتطوير التصورات التكتيكية للمصالح الأمنية الفرنسية و كذا جدول الانسحاب و الانفصال (تعالج موقف فرنسا في حالة استقلال الجزائر و طريقة تعاملها مع الجزائر المستقلة). بعض هذه الجداول يعالجها بكفاءة الباحث الألماني هارتموت إلزنهانس في كتابه فشل الاستعمار الفرنسي في الجزائر، دار القصة للنشر، الجزائر، 2015 ص ص 149 - 171

⁶ محمد خلفاوي، المرجع السابق، ص ص 99 - 101

⁷ لتفصيل أكبر في عملية العصفور الأزرق ينظر: محمد الصالح الصديق، عملية العصفور الأزرق، دار دحلب، دس، ص ص 61 -

تم تسليم قوائم المتطوعين لسوستيل وعميله، وفي الواقع كانت تلك القوائم لمجاهدين اختارهم القيادة العسكرية للولاية، ممن سيتولون تحت هذا الغطاء، تصفية المتعاونين مع المحتل بلا قلق، وتزويد جيش التحرير بالسلح المتحصل عليه من الجيش الفرنسي الوثائق من دعم القوة الموازية. تواصلت عملية التطهير والقضاء على الخونة إلى حين نفذ أعضاء المنظمة إعدام أحد الخونة وأخبروا، كعادتهم، الضابط الفرنسي ليضيف إلى قائمة "الفلاقة" المغتالين تصفية المجاهد المزعوم ولما ذهب إلى عين المكان للتأكد من الخبر، تبين أنها جثة أخلص معاونيه.⁸

نشأة شبكات الاتصال التابعة للولاية التاريخية الخامسة:

في غرب البلاد؛ حيث العمليات العسكرية أقل⁹ سيتم تأسيس نواة جهاز المخابرات الجزائرية، وسيكون حاسما في مسألة الاستعمار الفرنسي للجزائر، و سيصل إلى درجة كبيرة جدا من الاختراق من أقرب ثكنة عسكرية فرنسية إلى ديوان الرئيس ديغول، حيث سيعكف عبد الحفيظ بوصوف على تأسيس مصلحة حيوية للاتصالات، سيكون " علي ثليجي " مهندس هذه المصلحة الحيوية والحساسة ، مدعوم بالمدعو سي موسى أبو الفتح و " الغوطي " قبل أن يباشر تكوين المشفرين ومشغلي الراديو. وقد عرف استحداث مصالح الاتصالات تطورات عدة منذ بداية سنة 1956 و تولدت عنها مصالح ملحقة متخصصة مثل مصلحة فك الرموز ومصلحة التقييم. وفي نهاية 1956 قام سنوسي سدار المسعى موسى بتأسيس مركز تنصت إذاعي كهربائي صار عمليا في الفاتح جانفي 1957¹⁰، و في شهر أفريل 1957 تم استقبال دورة تكوينية جديدة مشكلة من 32 شابا في مركز

⁸ محمد خلفاوي، المرجع السابق، ص ص 99 - 100

⁹ إن ملاحظة بسيطة لجغرافيا العمليات القتالية خلال ثورة التحرير ستقودنا من دون شك إلى استنتاج الدور الفعال والكبير جدا لكل من منطقة الأوراس والقبائل ومناطق أخرى لا تقل أهمية. بينما نجد الولاية الخامسة أقل عدوانية تجاه الوجود الاستعماري حتى أن مصطلح " المنطقة الهادئة" تكرر كثيرا في التقارير الفرنسية. لكن في واقع الأمر أن القيادة العسكرية للولاية الخامسة هي التي أصبحت توجه القيادات العسكرية لبقية الولايات و توجه القيادات السياسية للحكومة المؤقتة (على عكس)، و سيطرت على الوضع والدولة في نهاية المطاف.

أعتقد أنه من الواجب أن نوضح: العمليات القتالية التي باشرها القادة العسكريون الخمسة اعمدت على تكتيك حرب العصابات التي ترتكز بالدرجة الأولى على طبوغرافيا الميدان. وهذا النوع من الحرب يفترض وجود: محارب + أسلحة + خلفية قتالية للانسحاب السريع (غابات أو جبال وعرة) وحرب العصابات بدون توفر هذه المعطيات يعتبر إقبالا مباشرا على الانتحار أمام ثالث قوة عسكرية في العالم وهذه الشروط لم تتوفر في الولاية التاريخية الخامسة و بالتالي فالعمليات القتالية قليلة. لكن سيتم تعويضها بسلح آخر. هذا الهدوء الذي اتسمت به الولاية الخامسة و باعتماد المغرب كخلفية كان فرصة لتأسيس جهاز استعلام قوي. بعد سنة 1958 و بتكاثف مجموعة من الظروف ستتحسر العمليات الحربية و ستبرز إلى الوجود أسلحة جديدة و ميادين قتالية جديدة على رأسها "الاستعلام" هذا الجهاز الجزائري الجديد سيتمكن من وضع هيكله للجيش الاستعماري الضخم المعسكر بالجزائر بجميع القطاعات و كل فيالقه فوجا و بأسماء الضباط و أسماء ضباط الصف (و معلومات شخصية خصوصية عن بعض الضباط عند الاقتضاء) و مواقع الفرق العسكرية وتحركاتها و خططها و طبيعة و نوعية تسليحها. كل هذه المعطيات التي تركزت في قاعدة ديدوش مراد (مديرية التوثيق و البحث (DDR) ومديرية اليقظة ومكافحة التجسس (D VCR)) جعلت كل قيادات الولايات التاريخية تسير بتوجيه قيادة الولاية الخامسة التي أصبحت ترتع على عرش قيادة الأركان خلال الثورة ثم الدولة بعد 1965. و هذه – باعتقادنا- سيروية منطقية جدا. لأن من يمتلك المعلومة هو الذي سيطر على الميدان.

¹⁰ محمد دباح، كنا نلقب بشبكات الراديو المتمردة، دار هومو للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2014، ص ص 75 - 78

التدريب التقني للاتصالات، واستقبل مركز التنصت الإذاعي الكهربائي جنودا متخصصين كانوا يستخدمون أجهزة استقبال من همارلوند س.ب 600 و من كولنس المصنوع في و م أ. و أخذ من القواعد الأمريكية المقيمة بالمغرب¹¹. لم يكن هذا الاسهام الأمريكي - غير الرسمي - الوحيد للثورة التحريرية، لقد كانت الناحية الخامسة تملك الرجل الذي استطاع أن يخترق ما عجز عنه بوصوف شخصيا، كان مسعود زقار الرجل رقم واحد في معادلة العملاء. شاب صغير، طموح، ذكي جدا، وقابل للتطوير، بعد لقاءات بسيطة و قليلة مع بوصوف و هواري بومدين تم تعيين مسعود زقار على رأس المصلحة الخاصة للاستكشاف. و سيصبح إسمه رشيد كازا. في ظرف وجيز سيتمكن رشيد كازا رئيس المصلحة الخاصة للاستكشاف من تجهيز الولاية الخامسة بما تحتاجه من أجهزة الراديو للاستقبال و الارسال، و يتمكن بعد ذلك من تصميم و إنشاء وحدتين لصناعة أسلحة البازوكا و بعض المعدات الأمريكية التي لم تكن فرنسا تمتلكها¹²

الهيكلية الاستعلامية الجديدة للمصالح الأمنية الفرنسية:

إن انتشار "التمرد"، - ينبه الجنرال " ه. جاكين"¹³ - لا يعود فقط لرداءة الوسائل المدنية والعسكرية التي تم اعتمادها بهدف الحد منه، بل قلة الاستعلام هو من جعل جهود فرقة لم تكن تخطئ أهدافها عديمة الفعالية. مع أن كل مصالح الاستعلام الفرنسية كانت آنذاك مزروعة في الجزائر، بدء من مصالح الربط (الاتصالات) بشمال إفريقيا (SNLA)¹⁴ وكذا مصالح (PRG). و مكتب (SDECE) بالجزائر العاصمة و يضاف إلى كل هذه المصالح مديرية مراقبة الإقليم (DST) التي تتبع وزارة الداخلية، تخضع لرقابتها المقاطعات الجزائرية الثلاث¹⁵. كما أنشأت الناحية العسكرية العاشرة للجيش الفرنسي في الجزائر عددا من المكاتب والملاحق المتخصصة في العمل النفسي والدعائي وصل عددها إلى اثنتا عشرة مكتب. وفي شهر يناير 1957 تحول اسم هذه المصلحة إلى اسم المكتب الخامس، وهو تابع مباشرة لأوامر القائد الأعلى للجيش الفرنسي في الجزائر ويشارك الوزير المقيم في تسييره واتخاذ القرارات، من خلال لجنة مشتركة. أما عن صلاحياته فهي الإشراف على ما يتعلق بالتهدة والقضايا الجزائرية، وأنشئت له مصالح عدة منها: مصلحة الصحافة والإعلام والتي أسندت مهمتها لديوان قيادة الأركان، ومصلحة الإرشاد للمكتب الأول، ومصلحة الاستعلامات النفسية للمكتب الثاني، أما مصلحة المعنويات والمعلومات والتوثيق فقد

¹¹ نجادي محمد، شهادة ضابط من المصالح السرية للثورة الجزائرية، ترجمة محمد المعراجي، دار هومو للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2014، ص 197

¹² لا يسعنا المقام لذكر إنجازات مسعود زقار وعلاقاته الخاصة التي بفضلها زود الولاية التاريخية الخامسة بكل ما تحتاجه. نحيل

المهتمين إلى: الطيب بلولة، محاكمة زقار، ترمحمد بنبورة، برتي للنشر، ص 12 - 15

¹³ مسؤول المكتب الثاني لهيئة الأركان الفرنسية بالجزائر العاصمة

¹⁴ هي مصالح ملحقة بديوان الحاكم العام في الجزائر العاصمة مسيرة من قبل العقيد اشكولن، توفر للحاكم العام معلومات مركزة حول السياسة المنتهجة تجاه المسلمين وحالة الرأي العام.

¹⁵ محمد خلفاوي، المرجع السابق، ص 101 - 103

امتدت للمكتب الثالث، أما المكتب الرابع فقد أدار المصلحة الاجتماعية، أما مصلحة مهام الحرب النفسية، فقد اشرف عليها مكتب الدراسات والارتباط التابع لقيادة الأركان، واختيرت مدينة الجزائر لتكون مقرا لهذا المكتب مع إنشاء عدد من المكاتب موزعة حسب التقسيم العسكري السائد " القطاع الناحية المنطقة ". وعلى المستوى المركزي، كان المكتب الخامس يتشكل من 34 ضابطا و 32 ضابط صف و 138 من العسكريين و 12 من النساء العسكريات التابعات للجيش البري.¹⁶

تأسيس مدرسة الاتصال والشروع في أولى عمليات التنصت والتشفير:

أمام هذه الترسانة من الهيئات الأمنية والاستعلامية كان عبد الحفيظ بوصوف، حذرا و متخوفا من إمكانية قيام الجيش الفرنسي بعملية كبرى تعصف بجهوده، و في محاولة منه تجنب أي مفاجأة قد تكون مدبرة لوحده المقاتلة على وجه الخصوص أصر على التسريع في تخريج مختصين في الاتصالات ليمارسوا مهام الجوسسة¹⁷ و يتمكنون من اختراق إشارات المورس الفرنسية¹⁸ بمختلف السرعات. إذ "من غير المقبول أن يتحرك الجيش الفرنسي فوق ميداني دون علمي"¹⁹. و عليه تأسست²⁰ أول "مدرسة لمصالح الاتصالات" في مدينة وجدة في مسكن المسمى عبد القادر حمود، ثم انتقلت أخيرا قريبا من الناظور بالريف المغربي²¹ و كانت هذه المدرسة نواة لأكبر

¹⁶ الغالي غربي، فرنسا و الثورة الجزائرية 1954 – 1958: دراسة في السياسات و الممارسات، غرناطة للنشر و التوزيع، الجزائر 2009، ص 160

¹⁷ يشير الكاتب محرز عفرون في حديثه عن مغزى الكلمات و وزنها في مهمة التجسس أن المقياس الأساسي في المهمات التجسسية هو التمكن من معرفة القدرات العسكرية للعدو و معلومات عن جغرافيته و تضاريسه و مناخه و موارده و أن يملك ضابط الاستخبارات و التجسس المعارف العسكرية الكافية في ميدان التجسس بصفة خاصة لأن تلك المعارف تعطي الأولوية لتكوين ملمح الكفاءة في هندسة القتال. ينظر: عفرون محرز، آل روتشلد و آل بكري و تاليران. الملفات السياسية السرية في تاريخ الشعوب،

ترجمة مسعود حاج مسعود، دار هومو للنشر للطباعة و النشر و لتوزيع، الجزائر 2013، ص 161 – 163

¹⁸ تنص المادة 24 من اتفاقية لاهاي الصادرة في 18 أكتوبر 1907 المتعلقة باحترام قوانين و أعراف الحرب على أنه: "يعتبر اللجوء إلى خدع الحرب و الوسائل اللازمة لجمع المعلومات عن العدو و عن الميدان أعمالا مشروعة. و بهذا فإن عمليات التجسس و الاختراق عمل مشروع.

¹⁹ كتب بوليبوس (مؤرخ يوناني عاش بين 201 – 120 ق م) : بأن القائد يجب أن يؤمن إيمانا راسخا بوجود معرفة كل ما يتعلق بترزعات و شخصية خصمه . لذلك : كان لزاما على القائد أن يكون على علم سابق بنوايا العدو و تحركاته المنتظرة ، حتى يستطيع اتخاذ الإجراءات السريعة لمنعه من التدخل و إفساد خطته. و بذلك يمنع العدو من التدخل في تحركاته . و هذا لا يتأتى إلا بوجود جهاز مخابرات من الدرجة الأولى بتسيير من ضابط يتمتع بأكبر قدر من الذكاء . وليس من الضروري أن يكون ضابطا متخصصا في القتال. ينظر: ألفيد مارشال فيكونت مونجيمري، الحرب عبر التاريخ، تع: فتحي عبد الله النمر، ج1، مكتبة الأنجلو المصرية، ص 19 ينظر كذلك في مسألة تقدير قدرات العدو و الاستطلاع: مارتن فان كليفلد، عناصر القوة القتالية، تريزيد صايغ، المؤسسة العربية

للدراسات و النشر، ط1، بيروت، 1988، ص 43

²⁰ محمد دباح ، المصدر السابق ، ص 63 - 64

²¹ محمد زروال، الاتصالات العامة في الثورة الجزائرية 1954 – 1962، دار هومو للطباعة و النشر، الجزائر، 2015، ص 117

شبكة تنصت و استخبارات²² في المغرب العربي، و استطاعت تخريج عدة دفعات²³. صار مركز التنصت الراديو كهربائي عمليا في الولاية الخامسة، وكان إنجازا خارقا لا يقدر بثمن في تلك الحقبة من الحرب، و بداية من 1957 توسع التنصت ليشمل شبكات الجيش و المقرات الولائية و الحكومة العامة، و أحيانا بعض المحطات المتواجدة بالأراضي الفرنسية²⁴ و أصبحت وسائل الاتصال هذه الداعم الأكبر للجنود في الميدان، حيث تزود جيش التحرير بما يكفي من ضباط الاتصال و هو ما ساهم في رفع معنويات الجيش و أصبحت الروح القتالية و القدرة القتالية تظهر بشكل أوضح لدى الجنود. كان لضباط الاتصال معرفة دقيقة بالتضاريس، يمكنهم توجيه الجيش و إعطاء التعليمات المناسبة²⁵. و في ميدان التشفير أصبحت الولاية التاريخية الخامسة رائدة في هذا المجال بعد خطف جبهة التحرير الوطني لعقيد فرنسي في قلب وجدة، و مكنت العملية من قطع أشواط كبيرة في ميدان التشفير و التنصت²⁶

رغم فعالية شبكة الاتصالات، إلا أن مصلحة الاتصالات أصرت على اقتناء جهاز إرسال و استقبال عالي الجودة (ANGRC9) من أجل عصنة شبكة جيش التحرير الوطني ، لكن هذا الجهاز الجوهرة، كان حكرا على أعضاء حلف الأطلسي، سيتولى مهمة الحصول على الجهاز المهم و تجاوز العقبات الضابط (الهادئ) " شنقريحة " الذي تمكن بفضل أحد معارفه في ألمانيا و سلطة المال من افتكاك الصفة من الضابط الأمريكي المسؤول على هذه الأجهزة، و شحن، متجاوزا كل الأخطار، 50 جهاز باتجاه طنجة عبر برشلونة شهر ماي 1957 قبل تحويلها إلى وجهتها النهائية²⁷.
مركز التنسيق ما بين الجيوش²⁸:

²² يتميز النشاط الاستخباراتي بالعمل السري في حقل أو ميدان معين للاطلاع على أسرار و نقل المعلومات المكتشفة بوسائل مختلفة إلى من يهمه الأمر و قد يكون ذلك الحقل متعلق بالتجارة أو العلوم أو الصناعة أو الفنون أو الشؤون الدينية و العسكرية و السياسية ينظر: شوقي عبد الكريم، الاستخبارات الجزائرية في العصر الحديث 1492 – 1830، ط1، دار هومو للنشر للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2017، ص 26

عن مفرج أسعد و آخرون، موسوعة عالم المخابرات، أصل الجاسوسية و تطورها، ج01، دار نوبيلي للنشر و التوزيع، بيروت لبنان، 2005، ص 09

²³ ينظر: محمد دباح ، كنا نلقب بشبكات... المصدر السابق، ص 68 – 69

أو ينظر: عبد الكريم حساني، المصدر السابق، ص 90 و ما بعدها

²⁴ Abdelkader Bouzid, l'arme des transmissions: Témoignage, éd:lazhari labter, Alger, 2013, p: 34 - 36

²⁵ Mohamed Harbi, les Archives de la Révolution Algérien, Ed: dahlab, 2010, p 237

²⁶ عبد الكريم حساني، الحرب الخفية، الشبكات الأولى، ديوان المطبوعات الجامعية ، 2012، ص 51 و ما بعدها

²⁷ محمد خلفاوي، المرجع السابق، ص 103

²⁸ يرأسه العقيد Simoneau الذي انتدب من مصلحة التوثيق الخارجي و الجوسسة المضادة (SDECE) . وقد أنشئ هذا المركز من طرف الجنرال Raoul salan تحت إشراف الجنرال Paul Ely قائد الأركان العامة للجيش الفرنسي الذي دشنه في 27 أوت 1956 وهو هيئة فوق كل الهيئات الرسمية، إذ لم يكن في مقدور أية سلطة سياسية كانت أم عسكرية التدخل في صلاحياته و مهامه. ينظر: الغالي الغربي، المرجع السابق، ص 300 – 301

إلى غاية سبتمبر وأكتوبر من سنة 1956 كان الجيش الفرنسي يرسل رسائله عبر موجات قصيرة بلغة واضحة وإبراق لفظي يشير في مدلوله إلى محتوى الرسائل. أما حين يتعلق الأمر بتقرير سري فإنه كان يحتاط عملا بالتدابير الأمنية فيستعمل إشارات المورس التي يضبطها على سرعة 1200 وأكثر من ذلك²⁹ و خلال هذه السنة سيعيد جيش الاحتلال، تنظيم وتدعيم شبكات الاستعلام، على خلفية توجهات القيادة وتحليل الوضع الذي صار يفلت من بين أيديهم يوما بعد آخر. ومن أجل ضمان بعض التحالفات وتركيز الجهود العسكرية على الجزائر، تخلت فرنسا عن بعض الأعباء الاستعمارية، حيث التحقت كل فرقها المتواجدة في تونس والمغرب بالجزائر. ودعي الجنرال " سالان " وهو من قدماء محاربي الهند الصينية لتعزيز القوات كقائد أعلى فبذل جهدا معتبرا في تنظيم مركز التنسيق ما بين الجيوش³⁰ (CCI) الذي جمع كل المصالح العسكرية الخاصة، فضلا عن نشاطه الموازي مع بقية مصالح الشرطة والدرك. وسيكون أيضا هو من ينشئ المنظمة العسكرية الخاصة (OAS). فيما بعد أصبحت شبكة الاستعلام الفرنسي مهيكلة بشكل أقوى من أي فترة أخرى في مركز التنسيق ما بين الجيوش (CCI)، حيث تم تنصيب مصلحة للجوسسة المضادة بتوزيع مفارز عملياتية للحماية على التراب الجزائري (DOP) مهمتها إحباط عمل المنظمات السرية المناوئة ومصلحة الاستعلام العملياتي (SRO)³¹ والمفارز العملياتية للحماية (DOP). وتدعم الاستطلاع الجوي بإنشاء، ثلاث مجموعات جوية تكتيكية³² (GATAC)، بكل من قسنطينة ووهران والجزائر، ومركزين للقيادة الجوية المديرة (PCAD) في بشار والأغواط.³³ بهذه التغييرات الكبرى تمضي فرنسا قدما نحو تغيير كبير في عقيدتها العسكرية³⁴ لتصبح أكثر استجابة للاستراتيجيا العليا³⁵ التي تحددها باريس دوريا.

لم تكتف أجهزة المخابرات الفرنسية بمحاولة اختراق جيش و جهة التحرير الوطني، بل عكفت على تنظيم أجهزتها بشكل دوري حيث كانت مصالح الجهاز العملياتي للحماية (DOP) تحت إشراف العقيد Godard 113، والجهاز الحضري للحماية D . P . U تحت إشراف العقيد Trinquier

²⁹ Abdelkader Bouzid, op cit, p 34

³⁰ تجدون في الملحق الوارد في آخر المقال هيكلا يضم كل المصالح التابعة لمركز التنسيق ما بين الجيوش، حتى تلك التي كانت تعتبر سرية لدى الرأي العام والصحافة.

³¹ نصبت هذه المصلحة سنة 1956 ولم يتم الإعلان عن عنها أو التصريح بها.

³² كلف هذا الجهاز بتحديد وتأكيد المعلومة والقيام ببحوث ممنهجة في المناطق التي يحتل فيها تواجد وحدات جيش التحرير وكذا محاور العبور.

³³ محمد خلفاوي، المرجع السابق، ص 104 - 105

³⁴ العقيدة العسكرية: هي تراث اممي تراكم عبر الزمن يستند إلى فن الحرب و الاستراتيجية العسكرية، لها تعريف موحد لكن تختلف في تنوع النظم السياسية و طبيعة الأطماع و التهديد و الأعداء الحقيقيين و المحتملين ، وكذا أساليب التطبيق في الميدان. ينظر: طارق محمود شكري، العقيدة العسكرية و تطوراتها، الذاكرة للنشر و التوزيع، ط1، 2016، ص 10

³⁵ الاستراتيجية العليا: هي تنسيق و إدارة جميع مصادر الدولة أو مجموعة دول لتحقيق الغرض السياسي من الحرب حتى يتحقق السلام و الأمن الدائم لها. ينظر: ألفيد مارشال فيكونت مونتجمري، المرجع السابق، ص 14

١ ، من أهم المصالح الذي أعتمد عليها مركز التنسيق في تأدية عمله والمتمثل في تفكيك شبكات جهة التحرير الوطني بكل الوسائل المتوفرة والمتاحة. وصل عدد هذه المصالح الى 24 مصلحة رئيسية، مدعمة ب 38 ملحقة منتشرة في كامل ربوع الجزائر، الكل يدار بمديرية مركزية موجودة بمدينة الجزائر و 6 مديريات جهوية على مستوى كل ولاية تاريخية. ويعمل بها حوالي 2500 شخص أغلبهم ضباط وصف ضباط منتدبون من مصلحة التوثيق الخارجي والجوسسة المضادة ومصلحة الأمن والاستعلامات التابعة للدفاع الوطني والقوات المسلحة. يدير كل مصلحة ضباط برتبة نقيب وضباطين مساعدين له، ومن أربعة أو خمسة ضباط صف، يساعدهم خمسة عشر الى عشرين فردا من جنود الاحتياط، وعدد من المترجمين من أصول أوربية أو الجزائريين.³⁶ بالتوازي مع سياسة الاستئصال التي كانت مصالح الاستعلامات تمارسها كان ديغول يبعث بالرسائل المناسبة للشعب الجزائري ليؤكد لهم أن جميع من يوجد فوق التراب الجزائري هو فرنسي يتمتع بنفس الحقوق والواجبات التي يتمتع بها بقية الفرنسيين، كما دعاهم إلى الاستفتاء على الدستور القادم، وهو ما يرغب من خلاله في نيل الشرعية في طرحه أمام العالم.³⁷ وفي هذا المسعى أمر ديغول قائده العسكري في الجزائر سالان بعدم ممارسة التزوير " الكلي " لاستفتاء الدستور مشيرا إلى أهمية وجود فئة ترفض مشروع الدستور وهذا ما يطبع الأمر بالشرعية³⁸

نماذج موجزة من عمليات الاختراق الفرنسي:

في أكتوبر 1956 ، باشر " مورييس لاصاب " ، محافظ شرطة سابق تحت حكم فيشي، قبل ترقية عميد أول divisionnaire في الجزائر ، اتصالات مع السجين عبد القادر بلحاج المدعو كوبيس الذي وشي خلال توقيفه العام 1950 بمسؤول المنظمة الخاصة. كان هدف الشرطي الفرنسي مثلما يحكي " روجيه فاليجو " و " باسكال كروب " ، " إقناع كوبيس " بتنظيم معقل مضاد بمنطقة " دوبيري " (عين الدفلى) تحت أعين مديرية مراقبة الإقليم ظاهريا ستكون ما تسمى " القوة ك " (Force K) ضد فرنسا رسميا، لكنها في الخفاء ستكون قوة مدعومة فرنسيا تحارب جهة التحرير، تولى قيادة القوة ك ، التي تضم مجرمين ومنحرفين ينتحلون صفة مقاتلين في (الأفلان) إطاران من المصالح الخاصة الفرنسية، النقيب " كونيل " و " هانتيك ". كان مصير " كوبيس " التصفية بعدما لفظه الشعب ، وعزله في المعقل من قبل رجاله، وبعض من هؤلاء التحق بصفوف جيش التحرير مع عتادهم وعدتهم. لم تكن حالة " كوبيس " فريدة ، ف " بلونيس خدم الاستعمار بطريقته، لكنه وبسبب بعض نزعاته الاستقلالية يتعرض للتصفية عام 1958 من قبل من كانوا يتلاعبون به ومنحوه رتبة جنرال. تم حل كتيبته وتوزيع رجالها على وحدات القوات الخاصة في الجيش الفرنسي. أما قضية " لا بلويت " (Bleuie) فتعد واحدة من عمليات التضليل القاتلة لمصالح

³⁶ الغالي الغربي، المرجع السابق، ص 300 – 301

³⁷ Matthew Connelly, L'arme secrète Du FLN: Comment de Gaulle a perdu la guerre d'Algérie, Ed: 2011, p 228

³⁸ IBID, p 258

الاستعلام الفرنسية، بدأت مع وصول فتاة تدعى " روزا " إلى الجزائر، تلتحق فيما بعد بصفوف جيش التحرير بالولاية الثالثة، سلوكها المريب يثير شكوك النقيب " احسن محيوز " الذي قام باعتقالها قبل أن تعترف خلال استجوابها أنها كلفت من طرف النقيب " ليحي " بالاتصال ببعض ضباط جيش التحرير، وقد أعطي إنذار لكل المناطق والنواحي التابعة للولاية الثالثة لتوقيف كل العناصر التي جاءت من الجزائر ابتداء من شهر جانفي 1958 وتحويلهم إلى أكفادو لغرض التحقيق، إنها مؤامرة " الزرقية". و قد استطاعت هذه العملية التي أديرت باحترافية زرع البلبلة وسط صفوف المقاتلين مدة من الزمن³⁹.

تأسيس الحكومة المؤقتة وإعادة هيكلة مصالح الاستعلام:

بعد تأسيس الحكومة المؤقتة سنة 1958 ستصبح جهة التحرير أكثر قوة لأنها ستجنب صفة " المتمردين " التي لطالما وصفها به بعض الدول الداعمة للطرح الفرنسي، و سيكون لها الحق في الدفاع عن نفسها بفضل سفاراتها المستحدثة في الدول و خاصة لدى الأمم المتحدة للدفاع عن حقها المشروع، بالإضافة إلى مشروعية تلقي المساعدات من طرف الدول الشقيقة و الصديقة للشعب الجزائري و كذا التمكن من عقد المعاهدات و الاتفاقيات لدولية⁴⁰ كانت هذه الشرعية معاكسة تماما للمساعي الفرنسية القائلة بأن الجزائر شأن فرنسي خالص و ما يحدث فيها مسألة داخلية⁴¹ رفع الاستعلام والاتصالات إلى مصاف وزارة. وسيكون النشاط الاستعلامي ملزما على التسلل إلى السلطة الفرنسية حتى يسمح للحكومة الجزائرية بقيادة هجوم عام على دبلوماسية هذه القوة الاستعمارية، تضمنت وزارة الاتصالات العامة والمواصلات (MLGC) التي كان يقودها العقيد عبد الحفيظ بوصوف ، المدعوسي مبروك⁴² ، أساسا ، مركز الاتصالات العامة والاستعلام (LGR) المتكون من:

- فرع العمل والدعاية (SAP) مهمته اعتراض النشاط الدعائي للعدو الصادر من المكتب الخامس

الفرع العسكري العام (SMG) المكلف بمتابعة النشاطات العسكرية للعدو واستراتيجية احتلال الأراضي.

- فرع الإعلام والنشاطات السياسية (SIAP) المكلف بتحليل تطور الوضع السياسي عند العدو من خلال التوثيق المفتوح والتقارير التي تصل من مصادر أخرى.

³⁹ ينظر: محمد خلفاوي، المرجع السابق، ص ص 106 - 108

حاولنا الاختصار قدر المستطاع في عمليات الاختراق هذه لأنها تكلف وقتا أطول لشرحها و سنخصص لهذه الاختراقات الكبرى بحثا مستقلة في وقت لاحق إن شاء الله.

⁴⁰ Mohamed Harbi, p 212

⁴¹ Matthew Connelly, op cit , p 258

⁴² Mohamed Debbah, L'O.A.S et l'indépendance de L'Algérie: Bulletin de Renseignements et de Documentation, Ed: houma, Alger, 2015, p 225

- فرع الاستعلام المضاد (SCR) المكلف بتحديد ورصد أسماء المتعاونين مع العدو من السكان الأصليين وكشف شبكات المصالح الخاصة الفرنسية.

كما أنشأ جيش التحرير الوطني لاحتياجاته العامة مدرستين لتكوين الإطارات : الأولى في وجدة بالمغرب ، ومن بين من تخرج منها العقيد " قاصدي مرياح " الذي سيصبح بعد الاستقلال مدير الأمن العسكري (DSM) ، أما الثانية فبمدينة الكاف بتونس.⁴³

اختراق مصلحة التوثيق الخارجي والجوسسة المضادة (الفرنسي) للحكومة المؤقتة الجزائرية: شهد البث الإذاعي الجزائري، الذي كان عمليا منذ 1956 في الولاية الخامسة، تنظيما محكما سنة 1958 تحت رعاية الـ (MLGC) . واعتبر المكتب الفرنسي الثاني أن هذه " الإذاعة تحوز على تنظيم تقني عالي الجودة. من الطرف الفرنسي راحت كل المصالح الخاصة تتجند لكسر زخم الثورة، ويقول " جاك فريمو " : « نحصى أربعة أنواع من ضباط الاستعلام ضابط الاستعلام في المكتب الثاني ، ضابط الاستعلام بمصلحة العمل (service action) ، ضابط العمل البسيكولوجي التابع للمكتب الخامس وضباط الفروع الإدارية المختصة (SAS) ، يضاف إلى هؤلاء فرق مصالح الدرك والـ (DST) والشرطة القضائية والـ « RG79 . كل هؤلاء عكفوا على اختراق مصالح استعلام الحكومة المؤقتة و قد تسنى لهم ذلك في تونس حينما جند جهاز المخابرات الفرنسي (مصلحة التوثيق الخارجي والجوسسة المضادة - SDECE) عميلا⁴⁴ بتونس، وهو إطار سامي بوزارة التسليح ، حيث قدم معلومات عملياتية حول بواخر نقل الأسلحة الموجهة لوحدة جيش التحرير، وهو ما أدى إلى تعرض عدة بواخر للمراقبة البحرية (SURMAR) . تمكن هذا العميل من الإفلات من مصالح الاستعلام الجزائرية والالتحاق بالقاعدة العسكرية الفرنسية بمدينة بنزرت. وفي تونس دوما ، فخخت (مصلحة التوثيق الخارجي والجوسسة المضادة - SDECE) ، الخطوط الهاتفية للرئاسة، وهي مستعملة آنذاك للاتصال مع الحكومة المؤقتة (G . P . R . A) ، وهذا بهدف التنصت. اكتشفت إطارات المصالح الاستعلامية للحكومة المؤقتة الاختراق الذي قامت به الشبكة الفرنسية المسماة " ماجنتا " (Magenta) ، فأخبر هؤلاء الشرطة التونسية التي قامت بتفكيكها.⁴⁵

اختراق المخابرات الفرنسية للتنظيم السياسي والإداري لجبهة التحرير:

على الصعيد العملياتي و في الميدان كانت المفزة الحضرية للحماية (DPU) التي أنشأها Robert Lacoste ، ووضعت تحت إمرة خبير الحرب الثورية العقيد Roger Trirquier . وهي المكلفة

⁴³ محمد خلفاوي، المرجع السابق، ص 110 - 111

⁴⁴ تختلف أصناف العملاء تبعا لمهامهم (عميل مؤثر ، عميل نائم ، عميل مزدوج ، عميل محرض...) ويتم التبرص بهم على كل المستويات وينتدبون وفقا لإمكانياتهم وقدرتهم في الوصول إلى المعلومة، بالتأثير طبعاً، وعلى استعداداتهم النفسية بالدرجة الأولى، أو على نقاط ضعفهم، وذلك من خلال : - المال : وهو بمثابة الطعام الأكثر شيوعاً - الإيديولوجية : عامل توظيف عن قناعة - الإيجار : الإقناع والإكراه عن طريق الابتزاز والمساومة - الأنا : استغلال العواطف الشخصية و النساء (الجنس - الحب)

للاستزادة ينظر: محمد خلفاوي، المرجع السابق، ص 29

⁴⁵ نفسه، ص 114 - 115

بجمع المعلومات التي تخص التنظيم السياسي والإداري لجهة التحرير الوطني قد تمكنت من اختراق التنظيم السياسي والإداري لجهة التحرير الوطني الذي كان يشرف على العمل الفدائي داخل مدينة الجزائر وضواحيها، إذ تمكن عناصر هذا الجهاز من إلقاء القبض على نصف سكان القصبة، وكانت عمليات المداهمات لبيوت المشبوه فيهم، تتم في غالب الأحيان ليلا، وذلك للحيلولة دون وصول خبر اعتقالهم لزملائهم الآخرين، مما يوفر لهم الوقت الكافي لفرارهم. كما نجح هذا الجهاز في تشكيل خلايا من العملاء داخل التجمعات السكانية عرفوا باسم Bleu Chauffe مهمتهم مراقبة السكان وجمع المعلومات وكشف المشتبهين الذين يتعاملون مع الثورة، زيادة على زرع الريبة والشك بين الأوساط الشعبية. وقد قدر الجنرال Salan عدد هؤلاء بحوالي 7500 عميلا استطاعت المخابرات الفرنسية ومصالحها الأمنية، بواسطة هذه الإستراتيجية من استغلال المعلومات التي كان يجمعها هؤلاء، لتنفيذ عملية اختراق واسعة النطاق للتنظيم السياسي والإداري لجهة التحرير الوطني وتمكن من الوصول إلى رؤساء الخلايا والأفواج وتصفياتهم وتدمير مخابئهم والاستيلاء على أسلحتهم. هذه الإستراتيجية مكنت هذه المصلحة من تحقيق نجاح كبير، خاصة بعد أن أفلح النقيب Leger فيما سعى في حينه la Récupération أو الاسترجاع، أي استمالة العديد من العناصر التي كانت محسوبة على جهة التحرير الوطني وخلاياها إلى صف الإدارة الاستعمارية⁴⁶، وفي إطار سباق الحرب المضادة دوما، استطاع نظام الرقابة والتتبع، الذي ابتدعه العقيد Trinquier، استطاع إحصاء السكان ومراقبة تحركاتهم وتقسيم الأحياء السكنية إلى مجموعات أو أقسام محددة ومعرفة بواسطة حروف وشارات على جدران وأبواب المنازل، مع تعيين رئيس لكل مجموعة، وهو المسؤول أمام المصالح السابقة الذكر، بتقديم تقارير يومية عن الأشخاص الذين يزرون الحي أو يقيمون لدى العائلات القاطنة بالحي، وقد اقترح Trinquier تعميم نظام الرقابة هذا على بقية مناطق الجزائر، بعد أن أثبت نجاعته في مدينة الجزائر وضواحيها حسب ادعاءاته⁴⁷. ترافقت هذه النجاحات الاستعلامية الفرنسية مع نجاحات قوات الكموندوس المحمولة جوا والتي تدعمت أكثر خاصة لما استخدمت طائرات "تي 6" و"تي 28"⁴⁸

تأسيس مديرية التوثيق والبحث (DDR) ومديرية اليقظة ومكافحة التجسس (DVCR):
قبالة هذا الوضع الصعب الذي يخضع له جيش التحرير الوطني، ومن أجل تنسيق أفضل وفصل محكم، قرّرت الـ CNRA الجمع بين وزارتي التسليح والتموين (MARG) و MLGC في إطار

⁴⁶ الغالي الغربي، المرجع السابق، ص ص 96 - 97

⁴⁷ نفسه، ص 371

⁴⁸ كان الجزائريون يسمون الطائرة "تي 6" المزودة بأدوات فوتوغرافية بـ الطائرة الصفراء وكانت تكلف بمهام استطلاعية إلى غاية 1959 قبل أن يتم استبدالها بـ "تي 28" أو "الفنك". رؤية هذه الطائرة في السماء كان إعلانا للحريق والدم في المداشر والقرى

وزارة جديدة في وزارة التسليح والاتصالات العامة (MALG) التي أوكلت مهمة تسييرها للعقيد عبد الحفيظ بوصوف. تمت هيكلة الـ (المالغ) في ست مديريات.

- مديرية التوثيق والبحث (DDR) .

- مديرية اليقظة والاستعلام المضاد (DVCR) .

- مديرية الربط (DL) .

- مديرية اللوجستيك شرق (DLE) .

- مديرية اللوجستيك غرب (DIO) .

- مديرية الإشارة الوطنية (DTN) .

أصبحت الأقسام :

- SMG > تصبح مصلحة الشؤون العسكرية (DAM)

- SIAP > تصبح مصلحة الشؤون السياسية (DAP)

تم تعزيز المصلحتين بمصلحة ثالثة للشؤون التقنية (DAT) ، وتم توزيعها عبر التراب الوطني وفي بعض الدول العربية (المغرب وتونس وليبيا ومصر) وحتى في فرنسا رغم تجند مصالح استعلامها بحثا عن عناصر جهة التحرير الوطني . أوكلت مهمة التنسيق بين هذه المصالح لـ DCCO غرب البلاد و DCCE في الشرق (مديرية المراقبة والتنسيق بين مصالح استعلام المالغ) . ستتولى هذه المصالح استغلال كل المعلومات التي تصلها من مراكز التنصت وتقارير الولايات والوحدات الحدودية والصحافة المكتوبة ومصادر أخرى مستترة.⁴⁹ وعلى المستوى التنظيمي أيضا أشرف بوصوف على تخريج نواة مصلحتين أطلق عليهما مصلحة التوثيق وتهتم بالاستعلامات و الثانية مصلحة اليقظة وتهتم بمكافحة التجسس وأصبحت تعرفان⁵⁰ لاحقا بمديرية التوثيق والبحث (DDR) ومديرية اليقظة ومكافحة التجسس (DVCR)⁵¹ وهو ما تم إنجازه فعلا في قاعدة ديدوش مراد⁵² التي ضمت كل مصالح الشفرة D.D.R و D.V.C.R⁵³ المكلفتان باستقبال المعلومات

⁴⁹ محمد خلفاوي، المرجع السابق، ص 17 – 18 ينظر كذلك إلى: محمد دباح ، المصدر السابق، ص 118

⁵⁰ المعلومات حول هذين الخليتين شحيح جدا . الكثير من المجهدين الذي كانوا قريبين من الخليتين أكدوا استحالة الوصول إليهما بسبب الفصل الصارم بين المصالح فلا أحد يعرف الآخر بينما بوصوف يعرف الجميع وعون مجهول الهوية ينسق بين المصالح و يربط الاتصال بينهم.

⁵¹ Abdelkader Bouzid, op cit , p p 81 – 82

⁵² قاعدة ديدوش مراد: كانت هذه القاعدة موجودة في الصحراء على بعد كيلومترات من طرابلس ليبيا ، وكانت هذه القاعدة هي دماغ المالغ ، كل المعلومات كانت تأتي إلى هذه القاعدة في شكل تقارير ورسائل . ينظر: نجادي محمد، المصدر السابق، ص 200 -

202

⁵³ مديرية اليقظة ضد الجوسسة (DVCR) تأسست في منتصف 1959 . أول مسؤول عنها هو عبد الرحمان بروان المدعو صفر مهمتها الأساسية هو الحفاظ على أمن الثورة داخل الجزائر وخارجها. وجهت جهودها إلى اكتشاف نقاط الضعف في الثورة و تدعيمها و بذلت جهودا كبرى مضادة لشبكات المكتب الثاني التابع للجيش الفرنسي و اليد الحمراء و أبلت بلاء حسنا في مراقبة قيادات الدولة الفرنسية ينظر محمد زروال، المصدر لسابق، ص 153

لاستغلالها، و قد استطاعوا بالفعل تنظيم تنصت عالي المستوى على كل الشبكات المدنية والعسكرية الفرنسية G.M.P.R بالإضافة إلى العملات و الثكنات والدرك و النواحي العسكرية.⁵⁴ في تقارير متكاملة وعالية الدقة⁵⁵

أوكلت لقاعدة ديدوش مراد مهمة ضمان متابعة وتحليل الوضع ، بالأخص في الجزائر وفرنسا وفي الدول العربية . تدعم الاستعلام الجزائري بفضل شبكات الأنصار وبعض المثقفين الملتزمين و كذا المنظمة الخاصة لفدرالية جبهة التحرير بفرنسا التي نشطت في الاستعلام السياسي والعسكري و القضائي⁵⁶ . مع مرور الوقت، تمكن المركز من نسج شبكاته حتى داخل مكتب رئيس الجمهورية الفرنسية الجنرال ديغول، ونجح أيضا في الحصول على خرائط هيئة الأركان (بمقياس كبير 1/50.000) بفضل عناصره المتسللة داخل وزارة الدفاع الفرنسية، مما جعل عمل متعاملي الراديو أكثر فعالية. وسمح بفك رموز رسائل الإدارة الاستعمارية ولو بشكل جزئي، وأحيانا تحديد أهداف العمليات المخطط لها من قبل الجيش الاستعماري قبل وقوعها.

قاعدة ديدوش مراد تلعب دورا حاسما في المفاوضات:

نجحت المصالح الخاصة الجزائرية خلال فترة الحرب في التسلل إلى الإدارات المركزية والبعثة العامة للحكومة وحتى الناحية العسكرية العاشرة بالجزائر العاصمة، سمح ذلك للحكومة المؤقتة بالتصدي للنشاط الدبلوماسي الفرنسي بسهولة، و صارت اللجنة التي نصبها الرئيس الفرنسي ديغول على مستوى ديوانه بلا أسرار بالنسبة للمخابرات الجزائرية. كان العميل الموظف من قبل الأخيرة وهو عضو في اللجنة المذكورة، يسلم للضابط الذي يتعامل معه تقريرا حول أعمال كل دورة، وبهذا الشكل تسلم عبد الحفيظ بوصوف الملف الخاص باستراتيجية المفاوضات الفرنسية، قبل أن يحوله إلى وزير الشؤون الخارجية بالحكومة المؤقتة سعد دحلب، عضو وفد جبهة التحرير في المفاوضات مع الحكومة الفرنسية. كانت خطابات الرئيس الفرنسي تصل الحكومة الجزائرية المؤقتة قبل بثها.⁵⁷

⁵⁴ نجادي محمد، المصدر السابق، ص 198

ينظر كذلك: محمد لمقامي، رجال الخفاء: مذكرات ضابط في وزارة التسليح والاتصالات العامة، المؤسسة الوطنية للنشر و الاشهار، ص 198

⁵⁵ كانت هذه التقارير من إعداد إدارات التوثيق و إدارة اليقظة الأكفاء ذوو المستوى التعليمي العالي و الذين استفاد بعضهم من تكوين خاص من طرف لجنة أمن الدولة السوفياتي (جهاز المخابرات السوفياتي K.G.B) في عملية نوعية جدا سميت "بالبساط الأحمر" وعرفت نجاحا كبيرا على الرغم من أن السوفيات اشتروا على الجزائريين عدم كتابة أي شيء خلال الدورة التكوينية.

ينظر: نجادي محمد، المصدر السابق، ص 204 - 205

⁵⁶ دحو جربال، المنظمة الخاصة لفدرالية جبهة التحرير الوطني، منشورات الشهاب، 2013، ص 90 و ما بعدها

⁵⁷ محمد خلفاوي، المرجع السابق، ص 119 - 120

في غضون و أثناء المفاوضات الفرنسية الجزائرية نبع تكريس القمع والترهيب كنمط للتفاوض⁵⁸ من سياسة إجرامية تنم في أحسن الحالات عن قصر نظر. لم تتمكن قوى الأمن و الاستعلام وحدها من معالجة كل أوجه المشكل. لقد كانت مخبرات الإدارة الاستعمارية تعتقد أن السيطرة العسكرية⁵⁹ في الحرب تعني التوجه نحو السلم "على المقاس" ، لقد أخطأت مصالح الإستعلام الفرنسية النظر، عندما سقطت في دوامة العنف في محاولة لدرء المخرج الحتمي. لا شك أن حلقة الاستخبارات تكسرت أو كانت معطلة. لقد عانت مختلف استراتيجيات الدولة الفرنسية من غياب الأخلاق بل الثقة، وربما كانت في حاجة لأخلاقيات مهنة هؤلاء لاستباق ردود الفعل قصد الحفاظ على المكاسب. كانت النشاطات الإجرامية للمنظمة العسكرية السرية (OAS) و (ORAF) مخالفة لخطاب و دعوات الاندماج . باءت كل تلك النشاطات بالفشل وقادت إلى تقسيم المجتمع الفرنسي حول حرب الجزائر بل إلى سقوط حكومات وجمهورية.⁶⁰

ختاما:

- (1) إن فرنسا الاستعمارية استطاعت استعمار جغرافيا الجزائر في وقت وجيز جدا، لكنها أبدا لم تستطع استعمار الشعب الجزائري.
- (2) أكذوبة المخبرات الفرنسية التي كان الجيش الفرنسي يروج لها و القائلة بأن المخبرات تعلم كل موجود و غير موجود مجرد أسطورة، اتضح أنها كذبة في أول منعرج ثوري سنة 1954.
- (3) لا أحد من المخبرات الفرنسية تنبأ بوجود ثورة. أشارت التقارير إلى تحركات غير عادية، و إمكانية حصول أعمال تخريبية، أما الثورة فلم يتوقعها أحد.
- (4) اعتمدت الثورة التحريرية على استراتيجية جيدة و تكتيك قتالي رفيع المستوى بالنظر إلى الإمكانيات و الظروف. لكنها أبدا لم تعر اهتماما كافيا بالاستعلام (في بدايتها).
- (5) كانت الثورة التحريرية محظوظة بوجود أمثال سي بوصوف، هواري بومدين، سي الغوثي، سي سدار، رشيد كازا... الذين امتلكوا الحس الاستعلامي و وظفوا كل إمكانياتهم لإنشاء جهاز استعلام قوي.

⁵⁸ يتشعب جهاز المخبرات الفرنسي بأولئك الخبراء في مجال التفاوض لحسم الصراعات. و قد كان من المنطقي أن تترافق دعوة ديغول بحق تقرير المصير بمجموعة من وسائل الضغط لخلق تسوية مقبولة مع الطرف الجزائري. للاطلاع أكثر حول استراتيجيات التفاوض ينظر إلى فصل "فاوض أثناء التقدم" من كتاب: روبرت غرين، المرجع السابق، ص ص 417 - 433

⁵⁹ في فصل " ليس بالعدد و العناد تكسب معركة" يؤكد بيل فاوست عدم حتمية الانتصار في حالة تحقيق التفوق العددي و التفوق في العناد. كانت هذه هي نظرة فرنسا للأمر. إذ رأى الفرنسيون أنهم مع القوة الجوية و الأسلحة الحديثة و قدامى المحاربين من ذوي الخبرة و الفيلق الأجنبي الفرنسي لن يواجهوا أية مشاكل جراء قمع أي تمرد سيئ التسليح و يفتقر إلى المزايا العسكرية، لكنهم واجهوا الفشل. للاطلاع أكثر حول مسألة أهمية العناد والعدة ينظر: بيل فاوست، كيف تخسر معركة، أخطاء الجنرالات عبر التاريخ ، تر:

هشام عبد الحميد، ط1، دار الكتاب العربي ، 2017 ، ص ص 51 - 58

⁶⁰ محمد خلفاوي، المرجع السابق، ص 121

- (6) استفادت الولاية التاريخية الخامسة من طوبوغرافيتها السيئة غير الملائمة للعمليات القتالية المعاصرة، وانعكس الهدوء الموجود بها على حسن وسهولة تأسيس شبكات التجسس.
- (7) فشل جهاز الاستعلام في مختلف القوى الأمنية الفرنسية في القضاء على الثورة التحريرية في مهبها أو حتى منتصفها حينما كانت الاستعلامات الجزائرية غير فعالة.
- (8) استطاع بوصوف أن ينشئ مدرسة خاصة بالاتصالات وتخرج منها العديد من الدفعات التي تمكنت من التنصت على كل الغرب الجزائري وحتى الشرق المغربي.
- (9) برز جهاز الاستعلام بشكل أقوى بعد سنة 1958، حينما انحسرت العمليات القتالية العسكرية وبدأت أجهزة الاستعلام تلعب الدور الأكبر والموجه للحرب.
- (10) بتأسيس قاعدة ديدوش مراد (مديرية التوثيق والبحث (DDR) ومديرية اليقظة ومكافحة التجسس (DVCR)) أصبحت كل التحركات العسكرية الفرنسية تحت المجهر، و الأكثر من ذلك ديوان رئاسة الجمهورية الفرنسية مخترق ويضم أوفى العملاء.
- (11) اضطرت القوى الأمنية الفرنسية وعلى رأسها الجيش الفرنسي جهاز المخابرات إلى إعادة تعديل وضبط عقيدته العسكرية واستراتيجيته العليا لتتلاءم مع الظروف الحالية (لتلك الفترة).
- (12) شهدت القوى الأمنية الفرنسية (مخابرات - جيش - درك - شرطة) أكبر هيكلة في تاريخها باستحداث مصالح جديدة وهيئات وفرق ومفارز ومجموعات قتالية خلال ثورة التحرير الجزائرية.
- (13) أصبحت كل القوى الأمنية الفرنسية تنسق تنسيقا كليا مع جهاز المخابرات، وتخصص مكاتب خاصة للتنسيق معه.
- (14) نجح جهاز المخابرات الفرنسي في اختراق جبهة وجيش التحرير الوطني في العديد من المرات، وقد دفع الكثير من الأبرياء ثمن جهادهم وتواصلهم مع جيش وجبهة التحرير.
- (15) أصبحت فرنسا بعد 1960 في حاجة ماسة للتخلص من المأزق الجزائري. ولكنها حاولت الخروج بوجه مشرف وبأكبر قدر ممكن من المزايا.
- (16) ركزت الإدارة الاستعمارية - في قنواتها الإعلامية والدبلوماسية - على الظهور بمظهر القوي والفائز في "حرب التحرير" في محاولة منها لتصوير الاستقلال الجزائري على أنه ممنوح من طرف ديغول.
- (17) من الأسباب الوجيهة لحسم جهاز الاستعلام الجزائري الثورة التحريرية لصالحه هو أن جهاز المخابرات الفرنسي أساء تقدير قوة وقدرات "الفلاحة" و "الفلاحين"

قائمة المصادر والمراجع:

- (1) ألفيد مارشال فيكونت مونتميري، الحرب عبر التاريخ، تع: فتحي عبد الله النمر، ج1، مكتبة الأنجلو المصرية.
- (2) بيل فاوست، كيف تخسر معركة، أخطاء الجنرالات عبر التاريخ، تر: هشام عبد الحميد، ط1، دار الكتاب العربي، 2017.
- (3) دحو جربال، المنظمة الخاصة لفدرالية جبهة التحرير الوطني، منشورات الشهاب، 2013.
- (4) روبرت غرين، 33 استراتيجية للحرب، تر سامر أبو هوش، دار العبيكان (السعودية) و دار كلمة (الإمارات)، ط1، 2009.
- (5) شوقي عبد الكريم، الاستخبارات الجزائرية في العصر الحديث 1492 - 1830، ط1، دار هومه للنشر للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2017.
- (6) طارق محمود شكري، العقيدة العسكرية وتطوراتها، الذاكرة للنشر والتوزيع، ط1، 2016.
- (7) الطيب بلولة، محاكمة زقار، تر محمد بنبورة، برتي للنشر.
- (8) عبد الكريم حساني، الحرب الخفية، الشبكات الأولى، ديوان المطبوعات الجامعية، 2012.
- (9) عفرون محرز، آل روتشلد و آل بكري و تاليران. الملفات السياسية السرية في تاريخ الشعوب، ترجمة مسعود حاج مسعود، دار هومه للنشر للطباعة و النشر و لتوزيع، الجزائر 2013.
- (10) الغالي غربي، فرنسا و الثورة الجزائرية 1954 - 1958: دراسة في السياسات و الممارسات، غرناطة للنشر و التوزيع، الجزائر 2009.
- (11) فهد خليل زايد، الحروب و التسويات، بين الماضي و الحاضر : دراسة تحليلية، دار يافا لعلمية للنشر و التوزيع، 2011.
- (12) مارتن فان كليفلد، عناصر القوة القتالية، تر يزيد صايغ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط1، بيروت، 1988.
- (13) محمد الصالح الصديق، عملية العصفور الأزرق، دار دحلب، د.س.
- (14) محمد خلفاوي، الاستعلام رهان حرب صامتة، ط2، دار سارة للنشر، الجزائر، 2016.
- (15) محمد دباح، كنا نلقب بشبكات الراديو المتمردة، دار هومه للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2014.
- (16) محمد دباح، كنا نلقب بشبكات الراديو المتمردة، دار هومه للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2014.
- (17) محمد زروال، الاتصالات العامة في الثورة الجزائرية 1954 - 1962، دار هومه للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2015.

- 18) محمد لمقامي، رجال الخفاء: مذكرات ضابط في وزارة التسليح و الاتصالات العامة، المؤسسة الوطنية للنشر و الاشهار.
- 19) مفرج أسعد و آخرون، موسوعة عالم المخابرات، أصل الجاسوسية و تطورها، ج01، دار نوبيلي للنشر و التوزيع، بيروت لبنان، 2005.
- 20) نجادي محمد، شهادة ضابط من المصالح السرية للثورة الجزائرية، ترجمة محمد المعراجي، دار هومه للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2014.
- 21) هارتموت إلزنهانس، فشل الاستعمار الفرنسي في الجزائر، دار القصة للنشر، الجزائر، 2015 .

- 1) Abdelkader Bouzid, l'arme des transmissions: Témoignage, éd:lazhari labter, Alger, 2013
- 2) Mohamed Harbi, les Archives de la Révolution Algerien, Ed: dahlab, 2010
- 3) Matthew Connelly, L'arme secrète Du FLN: Comment de Gaulle a perdu la guerre d'Algérie, Ed: 2011
- 4) Mohamed Debbah, L'O.A.S et l'indépendance de L'Algérie: Bulletin de Renseignements et de Documentation, Ed: houma, Alger, 2015